الأثر الثقافي للوقف
في
الشريعة الإسلامية

بقلم
د. عبد الله بن عبد العزيز الزايدي
عضو هيئة التدريس
بكلية الشريعة – الرياض
جامعة محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، شرع لعباده ما فيه صلاحهم وفلاحهم فى الدارين، أحمده سبحانه وأشكره وأصلى وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين، وإماماً للمحسنين، وحجة على الخلق أجمعين - صلى الله عليه وآله فى العالمين - ورضى الله عن أصحابه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد ...،

فإن الحديث عن الوقف يأخذ أبعداً كثيرة، إذ أن له أثره على الحياة الاجتماعية والعلمية والحضارية ومن ذلك أثره على البناء العلمى والثقافى فى حياة الأمة الإسلامية.

ولقد عنى علماء الأمة بدارسة أثر الوقف، نقبوا فى كتب التراث العربى الإسلامى عن جهود المسلمين فى وقف المدارس والمساجد والمزارع والعقار والكتب، وغير ذلك من الوسائل التى يغلب عليها الدوام، إذا ما لقيت العناية اللازمة واهتمت بها الأمة، من حث الصيانة والتشغيل والترميم.

ولعلى فى هذا البحث أتجاوز المقدمات فى البحث فى مشروعية الوقف وفضائله وأحكامه وما يتصل بفقهه، فإن هذا المجال تعددت الأبحاث فيه وتنوعت، ولذلك سيكون هذا البحث منصباً على الأثر الثقافى للوقف، وذلك وفق الخطة التالية:

خطة البحث:

مدخل فى التعريف بالوقف

الفصل الأول: أثر الوقف فى الاتجاهات الفكرية

المبحث الأول: أثره فى الاتجاهات العقدية

المبحث الثانى: أثره فى الاتجاهات الفقهية

المبحث الثالث: أثره فى الاتجاهات الصوفية

الفصل الثانى: أثر الوقف فى حركة التحديد والاجتهاد

المبحث الأول: الأثر الإيجابى فى حركة التجديد والاجتهاد

المبحث الثانى: الأثر السلبى فى حركة التجديد والاجتهاد

الفصل الثالث: أثر الوقف فى مجال القيم العلمية

المبحث الأول: تحقيق مجانية التعليم

المبحث الثانى: تعزيز مكانة العلماء

المبحث الثالث: العناية بالبحث العلمى

الفصل الرابع: أثر الوقف فى مجال التأليف والمكتبات

المبحث الأول: أثر الوقف فى انتشار المكتبات والعناية بها

المبحث الثانى: أثر الوقف فى انتشار الكتب وتيسير تداولها

المبحث الثالث: أثر الوقف فى انتشرا العلم والثقافة بين العامة.

تمهيد فى التعريف بالوقف:

تعريف الوقف فى اللغة والاصطلاح.

أولاً: التعريف اللغوى لكلمة الوقف ومرادفاتها:

١ - **الوقوف:** جمع وقف، والوقف: مصدر وقف، يقف وقفاً، يقال: و قف الشئ وأوقفه: وحبسه، وأحبسه، وسبله، كلها بمعنى واحد. قال النسفى: الوقف: الحبس، ووقف الضيعة، هو: (حبسها عن تملك الواقف وغير الواقف، واستغلالها للصرف إلى ماسمى من المصارف)(١).

قال الفيومى: (وقفت الدار وقفاً: حسبتها فى سبيل الله)(٢).

٢- يؤدى معنى (الوقف) كلمة الحبس وقد وردت في السنة النبوية في حديث خالد بن الوليد إن خالدا احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، كلمة الحبس هي المستعملة في كتب الفقه المتقدمة، ولا زال المغاربة يستعملونها إلى اليوم، وبها تسمى الجهة المسؤولة عن الأوقاف إذ تسمى عندهم "الأحباس".

والحَبِسُ من الخيل: الموقوف فى سبيل الله.

وتحبيسُ الشئ: أن يبقى أصله، ويجعل ثمره في سبيل الله.

واحتبسه: وحَبسَهُ، فاحتبس، لازم ومعتدى(٣).

٣- ومن مرادفاته: الصدقة، وهي العطية التي يراد بها المثوبة من الله، من قولهم: تصدقت على الفقراء، أعطيتهم، والاسم: الصدقة.

والجمع: صدقات، وتصدقت بكذا: أعطيته صدقة، والفاعل: متصدق، وقد جاءت هذه اللفظة فى كلام المصطفى ﷺ في حديث: "**إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية** ...) الحديث رواه الجماعة إلا البخاري(٤).

قال العلماء: المراد بذلك الوقف، قال الإمام النووي: (وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه)، و قال: والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد.

---

(١) طلبة الطلبه: ص ٢٣١، الزاهر ١٧١.
(٢) المصباح المنير، ص ٢٥٦، مادة (وقف).
(٣) القاموس المحيط: ص ٤٨٣، مادة (حبس).
(٤) صحيح مسلم مع النووي: ٥٨/١١، ونيل الأوطار: ١٢٧/٦.

٤- التسبيل: هذه اللفظة ترد ويراد بها الوقف

وقال الإمام ابن المبرد: (الوقف: مصدر وقف وقفاً: يقال وقف الشئ وأوقفه: حبسه، وأحبسه، وسبله، كلها بمعنى واحد).

فتَرِد في عبارات الفقهاء في كتبهم، والقضاة فى صُكُوكهم "فلان سبل كذا"، والمراد به: أوقفه.

قال الفيروزآبادي: (وسبَّل تسبيلاً: جعله في سبيل الله، لهذا قال العلماء: ن من ألفاظه وقفت، وحبست، سبلت، وأبدت)[١]، وهذه صرائح ألفاظه.

هذا أهم الكلمات الواردة في معنى الوقف، وأضْحَت كلمة الوقف اليوم هي اللفظة الشائعة الذائعة في كتب الفقه وغيرها من المصادر التي تتناول هذا الموضوع.

تمهيد في أهمية الوقف الخيري في الحضارة الإسلامية وتطوره وخصائصه:

قال الشاعر معروف الرصافي:

للمسلمين على نزورة وفرهم ... كنز يفيض غنى من الأوقاف
كنز لو استشفوا به من دائهم ... لتوجروا منه الدواء الشافي
ولو ابتغو للنشء فيه ثقافة ... لتثقفوا منه بخير ثقاف[٢]

بهذه الأبيات يؤكد الشاعر على الأثر الثقافي للوقف للثقافة، وهذه حقيقة يلمسها المتابع لماضي الوقف الإسلامي وحاضره، ويدركها المتابع لمسيرة الحضارة الإسلامية في أوقافها العظيمة المتنوعة في أهدافها المتعددة في مجالاتها.

فقد كان الوقف الخيري أساساً رئيساً فى النهضة العلمية والفكرية العربية والإسلامية على مدار القرون إذ يتميز الوقف عن أي مشروع خيري بخصائص وميزات لا تتوافر فيما عداه، فهو من محاسن الشريعة الغراء، وقد أثبت الواقع المعاصر والدراسات العلمية والاقتصادية أن الوقف أنجح وسيلة لاستمرار المؤسسات العلمية والاجتماعية في أداء وظيفتها ورسالتها دون انقطاع إذا استثمرت أموال الأوقاف الاستثمار الصحيح، واستفاد منها الموقوف عليهم بما يحقق غرض الواقف"[٣].

(١) القاموس المحيط، ص ٩١١، مادة (سبل).
(٢) معروف الرصافي، المجموعة الكاملة، ج١ ص ١٦٩.
(٣) عبد الوهاب أبو سليمان، الوقف مفهومه ومقاصده، ص ٣.

فحين أحتك المسلمون بالحضارات الأخرى وأفادوا من أساليبها المادية على أسس من دينهم، وقيمهم، وسعوا دائرة الأوقاف ومواكبة لتطور المجتمع، وتنوع احتياجاته، وتعدد مرافقه ومؤسساته، متحريّن مقاصد الشريعة الغراء، واكب هذا الانفتاح الحضاري انفتاحاً فى الفهم، وتوسعاً في المضمون في معظم الاتجاهات المعيشية، لا جرم أن الوقف كان مشمولاً بهذا التوجه الحضاري، بل كان أحد أهم الروافد التي حثَّت هذا التقدم، وغذَّت سيره.

سأل سحنون الإمام عبد الرحمن بن القاسم: "أرأيت إذا حبس في سبيل الله فأي سبل الله؟"

قال: قال مالك: سبل الله كثيرة، ولكن من حبس في سبيل الله شيئاً فإنما هو في الغزو.

قال سحنون: قال ابن وهب قال يونس: قال ربيعة: كل ما جعل صدقة حبس، أو حبس ولم يسم صدقة فهو كله صدقة تنفذ في مواضع الصدقة، وعلى وجه ما ينتفع بذلك فيه، فإن كانت دواب ففي الجهاد، وإن كانت غلة أموال فعلى منزلة ما يرى الوالي من وجوه الصدقة)[١].

هذا المعنى الواعي الشامل لكلمة (في سبيل الله) وجَّه الفقهاء إلى سعة المعنى والمدلول تطبيقاً عملياً في جميع الاتجاهات، والآفاق التي يثبت نفعها وصلاحها للمجتمع الإسلامي وأفراده، وهو الأمر الملموس في الأوقاف الإسلامية في كل مصر وعصر[٢].

وقد توسع نظام الوقف ابتداء من "العصر العباسي فلم يعد قاصراً على الصرف على الفقراء والمساكين، بل تعدى ذلك إلى الإنفاق في كثير من جوانب الحضارة الإسلامية، من ذلك الصرف على تأسيس دور العلم والمكتبات والإنفاق على طلابها والقائمين عليها، إضافة إلى إنشاء البيمارستانات للمرضى ودور الرعاية الاجتماعية والأسبلة، وغيرها من جوانب الخدمات الإنسانية الأخرى النافعة لعموم المسلمين"[٣].

(١) المدونة، (بيروت: دار الفكر، عام ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م)، ج٤، ص ٣٤١.
(٢) عبد الوهاب أبو سليمان، مصدر سابق، ص ٢٠.
(٣) راشد القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ص ٢٥.

غير أن الانتماءات الفقهية والعقدي للواقفين قد ساهمت في آثار متنوعة للوقف بعضها كان إيجابياً في المسيرة الحضارية وبعضها الآخر كان سلبياً.

ومن المعلوم أن لشروط الواقف أهمتها في تحديد المستفيد من الوقف ذلك أن الفقهاء درجوا على النص في كتبهم - عند الكلام عل شروط الواقفين - على القول: إن شرطا لواقف كنص الشارع. وهذا التشبيه أثار خلافاً بينهم في هذا القول ومدلوله، وذلك على ثلاثة أقوال:

١- أن شرط الواقف كنص الشارع في وجوب إتباعه والعمل به، وممن قال به الماوردي، والخرشي من المالكية.

٢- أن شرط الواقف كنص الشارع في الفهم والدلالة، لا في وجوب العمل به وإتباعه. وهو رأي بعض الحنابلة والعلامة قاسم بن الحنفية.

٣- أن شرط الواقف كشرط الشارع، في الفهم والدلالة، وفي وجوب إتباعه والعمل به، وأكثر الفقهاء يرجح هذا المذهب.

ولكن من الواضح أن الشرط الذي يتعارض مع النصوص الشرعية لا يعمل به، ويبقى الوقف صحيحاً، إلا إذا أخل الشرط بمعنى القربة، فحينئذ يلغى الوقف من أساسه(١).

وهذا المنحى الذى أخذ به الفقهاء في موقفهم من نصوص الواقف، جعل للواقفين مطلق التحكم في تحديد ا لمستفيد من أوقافهم.

"وعلى أية حال فإن وثيقة أو حجة الوقف، تعتبر مرآة تعكس العلاقات الاجتماعية والسياسية في المجتمع في مرحلة إنشاء الوقف، ويمكن من خلال تحليل ودراسة حجج الأوقاف في مرحلة تاريخية معينة، رسم صورة واضحة لتلك العلاقات ودور القطاع الأهلي فى الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع. وهذا إضافة إلى ما يمكن استخلاصه من التوجه الفقهي المذهبي في صياغة الحجة"(٢).

ونظراً لما لشروط الواقفين من آثار مختلفة، فإنه يحسن الوقوف على تلك الآثار وهذا ما سوف أحاول الوقوف عليه في هذا البحث.

(١) ينظر: أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد عبيد الكبيسي، ج١، ص ٢٨٦.
(٢) عمر زهير حافظ، نماذج وقفية من القرن التاسع الهجري، ضمن أبحاث ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته، ص ٦.

الفصل الأول
أثر الوقف في الاتجاهات الفكرية

المبحث الأول: أثره في الاتجاهات العقدية:

كان لشروط الواقفين أثرها فيما يتصل بترسيخ اتجاهات عقدية معينة في بعض البلدان دون بعض، وفي أزمة دون غيرها، كما كان لهذه الشروط أثرها في تنمية ما يتصل بهذه الاتجاهات من كتب ومدارس وأربطة ونحوها. وعلى سبيل المثال كان بعض الواقفين يشترط أن يكون المستفيدون من وقفه من أتباع إمام في العقيدة مشهور دون غيره وأبرز مثال لذلك كثرة المشترطين أن يكون المستفيد من أوقافهم من أتباع أبي الحسن الأشعري – رحمه الله – دون غيرهم.

ولهذا نرى انتشار هذا المذهب العقدي أكثر من غيره نظراً لكثرة الأوقاف التي وقفت على أتباعه.

وممن ساهم بأوقافه في انتشار مذهب أبي الحسن الأشعري الملك السلجوقي نظم الملك. الذي قرب علماء الأشاعرة وأكرم إمامهم الجويني إمام الحرمين وأبا القاسم القشيري، وبنى المدرسة النظامية وهي أول مدرسة بنيت لفقهاء. وقد حرص أن يتولى التدريس في تلك المدارس فقهاء شافعية من الأشعرية. وقد كانت هناك مدارس للأشعرية قبل المدارس النظامية كمدرسة الإمام البيهقي وغيرها، لكن المدرسة النظامية أصبحت بمثابة جامعة حكومية رسمية، كما أنشأ نظام الملك مدارس كبرى سوى المدرسة النظامية، ومنها مدرسة في نيسابور، ومدرسة في هراة، إلى مدارس أخرى رس فيها كبار العلماء أمثال إماما لحرمين والأسفراييني والغزالي وتفرق خريجوها في البلدان كالعراق وإيران والشام وبلاد المغرب حتى وصلت آراؤهم ومعتقداتهم إلى أقصى بلاد أفريقية أدى إلى اقتصار تعمل كثير من الناشئة في ذلك الوقت علم العقيدة على المذهب الأشعري، وهذا بدوره أدى إلى انتشار هذا المذهب بحيث أصبح هو المذهب السائد في ذلك العهد وما تلاه.

ولا يعنى هذا عدم وجود أوقاف أخرى على أتباع الأئمة الآخرين بل لا يخلو مذهب عقدي من وجود وقف على أتباعه سواء بمدرسة أو رباط أو نحو ذلك، سيما في الأماكن التي تتعدد فيها المذاهب مثل مكة المكرمة والمدينة النبوية وبغداد ونحوها.

غير أن بعض المذاهب حظيت بأوقاف أكثر من غيرها خصوصاً في المدارس التي ينشئها الخلفاء والسلاطين، فمن المعلوم أن مذهب السلف في الاعتقاد الذي مثله الإمام أحمد بن حنبل والأئمة الثلاثة، لم يحظ بالدعم والتأييد الرسمي الذي لقيه فيما بعد المذهب الذي نسب إلى أبي الحسن الأشعري أو مذهب الماتوريدي على سبيل المثال.

كما أن عدداً ليس بالقليل من أغنياء المسلمين الذين أوقفوا أوقافاً كثيرة كانوا يخصون بها المنتمين للمذهب العقدي الذي يعتقدونه، ولا غرابة في ذلك، فإن من طبيعة الإيمان الميل إلى من يوافق الشخص في مذهبه الديني واتجاهه العقدي.

غير أن ذلك أدى كما قلت إلى نمو وتوسع بعض الاتجاهات العقدية على حساب اتجاهات أخرى لم تحض بمن يدعمها بالأوقاف.

المبحث الثاني: أثره في الاتجاهات الفقهية:

بالرغم أن عدداً من الواقفين ينوعون في أوقافهم على مختلف المدارس الفقهية كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في حادث عام ٦٣١هـ "ويما كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقهياً وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين .. ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها .. "إلا أن كثير منهم كانوا يوقفون على مذاهب فقهية حسب ما يتمذهبون به، مما أدى إلى نمو مذاهب فقهية وتوسعها عددياً ومكانياً أكثر من غيرها.

فقد أنشأ نظام الملك السلجوقي المدرسة النظامية وأوقفها على الشافعية فقط، وألا يقبل فيها طالب أو مدرس أو موظف أو فراش إلا أن يكون شافعياً، مما كان له أثر بالغ فيما بعد على كثرة المنتسبين لهذا المذهب الفقهي، إلى حد وصل بأحد المدرسين لعلم النحو وهو وجيه الدين أبو بربن المبارك الواسطى أن بدل مذهبه إلى الشافعي، وقد داعبه مؤيد الدين أبو البركات التكريتي (ت ٥٩٩هـ) بالأبيات الآتية

ألا مبلغ عني الوجيه رسالةً
وإن كان لا تجدي إليه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبلٍ
وذلك لما أعوزتك المآكلُ

ومـــا اخـــترت رأي الشـــافعي تُـــديناً
ولكنمـــا تهـــوى الـــذي هـــو حاصـــلُ
وعمـــا قريـــبُ أنـــت لا شـــكَ صـــائرُ
إلى مالـــكٍ فـــأفطن لمـــا أنـــا قائـــلُ[1]

ففي بلاد كالعراق في فترة الحكم العباسي توسع المذهب الحنفي لأسباب منها أن كثيراً من المدارس الموقوفة كانت وقفاً لتدريس المذهب الحنفي وفي الشام توسع المذهب .. أكثر من غيره نظراً لكثرة الأوقاف على المنتسبين هذا المذهب وفي مصر خص بعض.

أما في بلاد المغرب العربي والأندلس فكان أغلب الوقف على تدريس الفقه متجهاً للفقه المالكي، ومن النماذج المؤكدة لذلك:

أنه كان – يوجد بالمغرب، ومنذ عهد المرينيين أوقاف لكراسٍ علمية خاصة بمواد محددة، ومنها كرسيان خصصا للفقه المالكي:

- كرسي تهذيب البراذعي في الفقه المالكي بجامع الأذرع بفاس.
- كرسي المدونة في الفقه المالكي بجامع الأندلس بفاس[2].

كما كان بعض العصور فترة ازدهار للمذهب الحنفي في مصر وكان بعض أمراء المماليك يخص أوقافه بالأحناف – فقد جاء في نص وقفية السلطان المملوكي الأشرف برسباي التي أوقفها أثناء سنوات حكمه، على مدى أربع عشرة سنة منذ ٨٢٨هـ إلى ٨٤١هـ ما يلى:

- رجل من أهل الخير والدين حافظ لكتاب الله العزيز، يؤم الناس ويصلى بهم **وأن يكون حنفياً** عالماً بأحكام الصلاة محسناً للقراءة (١٠٠٠ درهم).
- **رجل من أهل العلم حنفي المذهب** موصوف بالديانة يكون شيخاً للصوفية (٣٠٠٠ درهم).
- **٢٥ رجلاً من طلبة العلم الحنفية** الموصوفين بالخير والدين والفقر، بالسوية بينهم (٧٥٠٠ درهم) لكلٍ ٣٠٠ درهم فى كل شهر[3].

(١) أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢-٢٠٥.
(٢) د. محمد الحبيب التجكاني، (الإحسان الإلزامي في الإسلام)، ص ٥٥٨-٥٦٠.
(٣) نقلاً عن: عمر زهير حافظ، نماذج وقفية من القرن التاسع الهجري، ص ١٨.

ومن هذا النص نلحظ أن الواقف حرص على اختصاص الأ؛ناف بغلة الوقف وأن لا يكون أحد من المذاهب الأخرى هو المتولي لأعمال الإمامة أو غيرها مما يتصل بالوقف.

ولا ريب أن مثل هذه الشروط سيكون لها كبير الأثر في اتجاه المتعلمين نحو المذهب الحنفيى ليتسنى لهم تولي الولايات الدينية التي تحصل من هذا الوقف وأمثاله، سيما إذا علمنا أن "وزارة الأوقاف المصرية تحتفظ بحجة وقفية كبيرة عدد أوراقها (٢٢٩) ورقة، وهناك ملخص لهذه الحجة بدار الكتب المصرية، يحتوي على ٢٤ حجة خاصة بالأوقاف التي أوقفها السلطان المملوكي الأشرف برسباي أثناء سنوات حكمه، على مدى أربع عشرة سنة منذ ٨٢٨هـ إلى ٨٤٠هـ"(١). فإذا كانت هذه أوقاف هذا السلطان وحده وفيها هذا التوجه الواضح باختصاص المذهب الحنفي فإن هذا التوجه يفسر الانتشار الواسع للمذهب وكثرة أتباعه في مثر في تلك الفترات التي تولى المماليك الأمر فيها.

ومن النماذج المؤكدة ذلك أن وقف الكتب في القرن العاشر الهجري بالمدينة المنوّرة شكلت فيه الكتب الخاصة بعلم الفقه الحنفي ستة وخمسين كتاباً بنسبة ١٢.٣٨% من مجموع الكتب الموقوفة في أكثر من ستة وثلاثين فناً من فنون العلم والمعرفة ولم يكن ثمة كتب موقفة من كتب المذاهب الأخرى سوى ثلاثة من كتب الفقه الشافعي فقط مما يدل على أثر توجه الواقفين على انتشار الاهتمام بمذهب دون آخر(٢).

ومن نماذج ذلك أيضاً أن أحد سلاطين المماليك المدعو (محمد قايتباي المحمودي) في القرن التاسع أسس مدرسة قايتباي وهي أكبر ما أنشئ للدراسة بجوار المسجد الحرام، وكانت هذه البناية تشغل حيزاً يبدأ مما كان يعرف قبل التوسعة (بباب السلام الصغير) إلى الباب المسمى (بباب النبي) من أبواب المسجد الحرام، كم أسس نحو ستة دور مخصصة لسكن الطلبة، وكان للمدرسين والطلبة جرايات ونفقات من أوقاف أقامها السلطان المشار إليه بمصر، ذكرها (الإسحاقي) في تاريخه، وذكر أنها خصصت لطلبة العلم الشوافع، والأحناف(٣).

المبحث الثالث: أثره في الاتجاهات الصوفية:

(١) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢) من وثائق وقف الكتب بالمدينة المنورة في القرن العاشر الهجري، إعداد د. عبد الرحمن بن سلميان المزيني، ص٤٢.

(٣) نقلاً عن عبد الوهاب أبو سليمان، الوقف مفهومه ومقاصده، ص ٢٤

كان للوقف المخصص للصوفية أثره في استمرار حركة التصوف بمختلف طرقه ومذاهبه، إذ من المعلوم أن القرن الرابع الهجري شهد عناية واضحة بالوقف على التصوف حيث بدأ وقف الخوانق والأربطة والزوايا وكلها أصبحت في نهاية الأمر للصوفية:

فالخوانق أو الخانقاهات جمع خانقاه، وتكتب أحياناً "خانكاه" وهي كلمة فارسية معربة ومعناها بيت ثمّ أصبح المقصود بها المكان الذي يختلي به الصوفية وينقطعون فيه للعبادة، وقد بدأ في وجودها في بلاد الإسلام في القرن الرابع الهجري(١).

وتعد الخوانق أو الخانقاهات من أهم مراكز الصوفية ومواقع انقطاعهم في كثير من العصور الإسلامية، حيث يمارس فيها التصوف سلوكهم الخاص وممارساتهم الدينية، وقد اهتم السلاطين وأمراؤهم في كثير من العصور الإسلامية بهذه المنشآت، فشيدوا منها الكثير وحبسوا عليها الأوقاف الغنية والدارّة للصرف عليها وعلى الساكنين بها بما يقوم بخدمتهم.

واشتهرت في بلاد الشام في العهد الزنكي خوانق عديدة في كل من دمشق وحلب، وغيرها من المدن، وكانت مثار إعجاب الرحالة والمارين بها، الشام، وقد مرّ بها الرحالة الأندلسي ابن جبير، وأعجب بما شاهده فيها، ووصفها بقوله: "... ومن أعظم ما شاهدناه لهم - يعنى الصوفية - موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء في أعلاه مسكن لم ير أجمل إشراقاً منها، وهو من البلاد - يعني دمشق - بنصف الميل له بستان عظيم يتصل به ... وقد وقفه نور الدين برسم الصوفية مؤيداً لهم"(٢).

وفي مصر اشتهرت خانقاه سعيد السعداء التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، ووقفها في الفقراء الصوفية الواردين إلى مصر من مختلف البلاد الإسلامية، ووّقف عليها الأوقاف الغنية للصرف عليها وعلى المنقطعين بها(٣).

وفي العصر المملوكي ازداد عدد الخانقاهات زيادة كبيرة، وارتبط اسم الكثير منها بأسماء كبار شخصيات الدولة من السلاطين والأمراء، ويكفي أن يشار هنا إلى خانقاه

(١) المقريزي، الخطط، ٢/٤١٤.
(٢) المرحلة: (ص ٢٥٧).
(٣) المقريزي، الخطط، ٢/٤١٥-٤١٦.

"سرياقوس" الذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) لتصل إلى مدى ما وصلت إليه الخانقاهات في العصر المملوكي من الشمول والارتقاء فى التنظيم حتى أنه ذكر أنّ بها مائة خلوة المائة صوفي، وبجانبها جامع تقام فيه الجمع، ومكان برسم ضيافة الواردين، وحمام ومطبخ، وغير ذلك من المرافق المساعدة[١]. المزيني الوقف وبنية.

أما الرُبُط، فهي جمع رباط، وهي في الأصل اسم للمكان الذي يرابط فيه الجنود لمجاهدة العدو، وحراسة ثغور الدولة الإسلامية ثمّ استعير الاسم للأماكن التي يتخذها المتصوفة والزهاد للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس. وهي أيضاً مأوى الفقراء وعابري السبيل، فهي تتشابه مع الخوانق في الوظائف، إن كانت هناك بعض الاختلافات الشكلية في إمكانيات كل منهما، وفي تجهيزاتهما إذ يبدو أنّ الخوانق كانت أكبر مساحة وأكثر أوقافاً، وأنها كانت تتسع لأعداد أكثر من الرُبُط باعتبارها معدة لإقامة أطول من الإقامة بالربط.

وقد انتشرت الربط انتشاراً واسعاً في مناطق متفرقة من العالم الإسلامي في كل من بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز، والمقيمون فيها مكفولون ينفق عليهم بما وقّف عليه من أوقاف[٢].

ومن هذه الرُبُط أيضاً، التي اشتهرت بسكنى الفقراء في المدينة المنورة رباط إقامة الوزير جمال الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) خصصه للفقراء – والمقصود بها الصوفية – ووقّف عليه الأوقاف المناسبة للصرف عليه.

أما الزوايا فواحدتها زاوية وهي ركن الدار، ثمّ أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لأشخاص قليلين ينقطعون في الغالب للعبادة وهي أصغر من الرباط، وربما كانت جزءاً منها حيث كانت تعدّ لإقامة بعض الصوفية والفقراء والأيتام وغيرهم[٣].

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، (ص٢٦١-٢٦٢)، وقد فصلت حياة الجي الحديث عن هذه الخانقاه وذلك بتحقيقها لوثيقة وقف الخانقاه ضمن كتابها "السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده" في الصفحات من (ص١٦١-٣٧٤). نقلاً عن المزيني، الوقف وبنية الحضارة الإسلامية.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٢.
(٣) عبد ا للطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ط٨، القاهرة، دار الفكر العربيى (١٩٦٨م)، ص ١٠٥.

وقد كان للزوايا أثرها في انتشار التصوف واتساع نطاق، وخاصّة في عصر المماليك في مصر حيث عدّ المقريزي ستةً وعشرين زاوية في القاهرة وحدها(١).

فهذه الثلاث - الخوانق، والربط، والزوايا - تتشابه في معانيها ووظائفها حتى أنّ الأمر قد اختلط على كثي رممن كتب عنها و لم يستطيعوا التفرقة بين مدلول كلّ واحدة منها لدرجة جعلت المقريزي وهو يعرف كلّ نوع في موضعه، لم يباعد عن معنى واحد، وهو أنها كانت جميعاً - بيت الصوفية ومنزلهم -(٢).

وقد عنى معظم سلاطين المماليك بدعم الصوفية بأوقافهم ومن نماذج ذلك ما رود في وقفية السلطان المملوكي الأشرف برسباي الذي خصص جزءاً من أوقافه للصوفية:

- رجل من أهل العلم حنفي المذهب موصوف بالديانة يكون شيخًا للصوفية (٣٠٠٠ درهم).
- يصرف لأربعة نفر حسني الأصوات يجلسون مع الصوفية ويقرؤون ما شرط على كل من الصوفية. فإذا فرغوا من القراءة قرأ الأربعة سورة الإخلاص على العادة في ذلك، وإذا فرغوا ذكر واحد منهم شياً من كلام أهل الحقيقة ثم يدعوا على العادة.
- يصرف لرجل يتولى بسط سجادات الصوفية قبل الحضور وطيها بعده وتفرقة الربعة الشريفة على الصوفية على العادة ويبخر يوم الجمعة والمؤذون على المتدنة على العادة مبلغ (١٠٠ درهم)(٣).

وفي العهد العثماي نشأ مسمى جديد للأوقاف المخصصة لإقامة الصوفية هو التكايا، وكانت "نشأتها في الأناضول ثم انتشرت في الولايات التابعة للدولة العثمانية، ومفردها تكية" ويرى بعض الباحثين أن سبب التسمية هو أن أهلها متكئون أى معتمدون في أرزاقهم على مرتباتهم في التكية.

(١) الخطط، ٢/٤٣٠-٤٣٦.
(٢) المزيني، الوقف وبنية الحضارة الإسلامية، ص ٤٨.
(٣) عمر زهير حافظ، نماذج وقفية من القرن التاسع الهجري، ص ١٩.

وتعتبر التكية من المنشآت الدينية التي حلَّت محل "الخانقاوات" المملوكية في العصر العثماني، بحيث اختفى لفظ "خانقاه" من البلاد التي استولت عليها الدولة العثمانية.

والواقع أن التكية أخذت تؤدي الوظيفة نفسها التي كانت تقوم بها الخنقاوات، أي أنها خاصة بإقامة المنقطعين للعبادة من المتصوفة.

وتشتمل التكية على مطبخ ومكتبة ودورة مياه ومستحم، وتكون أسقفها عبارة عن قباب متفاوتة الحجم؛ فحجرة الدرس تغطَّى بقبة كبيرة، وحجرات سكن الدراويش لها قباب أقل ارتفاعاً من حجرة الدرس أي مستوى وسط، وأخيراً قباب الظلات نجدها أقل في الارتفاع من قباب حجرات سكن الدراويش.

ومن أشهر التكايا العثمانية في مدينة القاهرة "التكية السليمانية" التي أنشأها لأمير العثماني سليمان باشا عام ٩٥٠هـ بالسروجية، و"التكيةالرفاعية" ١١٨٨هـ ببولاق، وهي تخص طائفة الرفاعية الصوفية، ولعل من أشهر التكايا العثمانية والتي مازالت مستخدمة إلى الآن في مصر هى تكية الدراويش "المولوية" نسبة لطائفة الدراويش المولوية إحدى الطوائف لصوفية العثمانية، ومنها أيضاً بالشام الزاوية الوفائية التي بناها الشيخ أحمد القاري إلى جانب قبر شيخه أبي بكر الوفائي حيث بنى إيواناً ضخماً وأحاطه بغُرف لمن أراد الإقامة والسير على منهج الشيخ وطريقته، كما بنى مصلى رائع البناء بديع الزخرفة، وبنى حجرة واسعة ضمنها عدداً كبيراً من ذخائر المخطوطات العربية والفارسية والتركية مما يتعلق بالتصوف"(١).

وهذه الزوايا والتكايا والخوانق والأربطة مما بني للصوفية وأوقاف عليهم كلها ساهمت في انتشار التصوف زيادة عدد المنتسبين للتصوف، وشجعت على التفرغ لمقتضياته، وكانت سبباً رئيساً في تنامي أعداد المنتسبين إليه. لوجوه عدة منها: أن الفقراء الذين لا يجدون قدرة على توفير المسكن والمأكل يجدون ذلك متوفر في تلك الأماكن، مع حافز ديني يشجع على ذلك، متوفراً في تلك الأماكن، مع حافز دينى يشجع على ذلك، مما جعل الكثير من الفقراء ينتسبون للتصوف والجماعات الصوفية تعمل على

(١) منى درويش التكايا العثمانية من العبّاد إلى العاطلين، موقع إسلام أو لاين ١٠-٦-٢٠٠١م.

تكثير سواد المنتمين لها ويكون الاجتماع في هذه الزوايا وسيلة لذلك لأن الاجتماع يسهل التنظيم وأعمال الدعوة.

وإذا تأملنا فى الكتب التي تؤرخ لطبقات الصوفية فسوف نجد ترابطاً وصلة بين تنامي تلك الزوايا والخوانك والأربطة وبين ازدياد أعداد المنتسبين للتصوف.

كما أن الوقف على أتباع طريقة بعينها كان له أكبر الأثر في ازدياد أعداد المنتمين إليها، كما هو الشأن في الطريقة الرفاعية في مصر التي تركز الوقف عليها أكثر من أي طريقة أخرى في بعض الفترات التاريخية.

كما كانت الأوقاف على ممارسة صوفية معينة سبباً في استمرارها والتشجيع على بقائها كإقامة موالد من يسمون بالأولياء في مصر إذ "كان يخصص لمعظم الموالد مبالغ ضخمة عن طريق الأوقاف للإنفاق على أوجه الصرف المختلفة، سواء في ثمن المذابح التي تذبح لطعام الفقراء، أو في الحبوب، وثمن الخبز والقراءة، وغيرها من الاحتياجات التي تلزم الموالد".

فقد نص الأمير أحمد كتخدا (١٦٠٩م/١١٢١هـ) على إنفاق مبلغ ثلاثة آلاف نصف فضة (وحدة نقدية كانت تساوى أربعين جزءاً من القرش المستعمل آنذاك)، وعشرين أردباً من القمح من ريع وقفه للصرف على مولد الدمرداش المحمدي، كما رصد شهاب الدين أ؛مد مبلغ ١٢٠٠ نصف فضة للصرف على ثمانية مواليد، بل أن السلاطين العثمانيين خصصوا منذ أيام سليم وسليمان مبالغ نقدية للإنفاق على الموالد في مصر.

ولقد ساهمت هذه الأوقاف بشكل أساسي في نجاح الموالد، بما وفرته من أنواع كثيرة من الأرزاق والخيرات من مأكل ومشرب، جعل لهذه الموالد شهرة كبيرة تسببت في جلب أعداد كبيرة من المريدين، جاءوا من أنحاء البلاد المختلفة"[١].

وهذا الدعم للتصوف من الأوقاف بصوره المختلفة كان له آثاره في نشر مفاهيم التصوف وقيمه وآثاره السلبية والإيجابية في المجتمع الإسلامي.

(١) محمد صبري يوسف، دور المتصوفة في العصر العثماني، رسالة ماجستير، نقلاً عن محمد الصدفي، أرزاق العباد بموالد الأولياء، مقال منشور بموقع الإسلام أون لاين بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٦.

الفصل الثانى

أثر الوقف في حركة التجديد والاجتهاد

المبحث الأول: الأثر الإيجابي في حركة التجديد والاجتهاد:

إن وقف الكتب والمكتبات وتوفيرها والوقف على المدارس والمتفرغين للتدريس كان له أكبر الأثر في تفريغ الفقهاء والعلماء لمزيد من التعمق في العلم والخوض في بحاره والتقاط دوره وفرائده.

كما أن الأثر الذي يمكن اعتباره إيجابياً للوقف على الاجتهاد هو وجود المجتهدين في المذهب الواحد بحيث يجتهدون لتخريج الأحكام للمسائل الجديدة على قواعد أئمتهم فحسب.

المبحث الثانى: الأثر السلبي فى حركة التجديد والاجتهاد:

أما الأثر السلبي لشروط الواقفين على حركة الاجتهاد فيتجلى في كون معظم الواقفين على المدارس وغيرها مما يتصل بالعلم والعلماء والفقه والفقهاء، اشترطوا شروطاً كانت سبباً في قلة بل وندرة المجتهدين خارج المذاهب.

ومن هذه الشروط أن يكون المدرس أو طالب العلم أو الإمام من أحد المذاهب الأربعة المعروفة، مما منع علماء كباراً من سلوك مسلك الاجتهاد أو الخروج عن المذهب في الفتوى أو القضاء، ويشهد لهذه الحقيقة أن أبا زرعة سأل شيخه البلقيني قائلاً: ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني. فقال أبو زرعة: فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قُدّرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وإن خرج عن ذلك لم ينله شئ، وحُرم ولاية القضاء،وامتنع الناس عن إفتائه، ونُسبَتْ إليه البدعة. فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك(١).

وهذا يؤكد مدى تأثر حركة الاجتهاد الفقهي بشروط الأوقاف المرصودة على التعليم، مع الأسباب الأخرى التي ذكرها أبو زرعة.

ذلك أن أكثر العلماء وطلاب العلم إنما تيسر لهم التفرغ للعلم بسبب الأوقاف، فإذا كان ثم شروط معينة لا يستفاد من الوقف إلاّ بالتزامها كان لأباء من ذلك.

(١) فقه السنة ١/١٠.

الفصل الثالث

أثر الوقف في مجال القيم العلمية

مـدخل: لـم يتقصـر أثـر الوقـف فـي عمليـة التعليـم علـى كونـه مـورداً ماليـاً لـه، بـل تعـدى ذلـك إلـى طرقـه جوانـب العمليـة التعليميـة كافـة، حتـى أنـه يمكـن القـول: إن وثيقـة الوقـف كانـت بمثابـة اللائحـة الأساسـية للمؤسسـة التعليميـة، حيـث تضـم الأسـس التربويـة للتعليم والشروط التـي يجـب أن تتوافر فـي القائمين بالتـدريس ومواعيـد الدراسـة، والحقـوق والواجبات، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية.

ولمـا كانـت المـوارد الماليـة للمدرسـة محـددة بريـع الوقـف، فقـد حـدد الواقفـون أعـداد الطلبة الذين يتلقون العلم في المدرسة، وليس ذلك فحسب بل إنهم حددوا طلبة كل مذهب من المذاهب الأربعة وطلبة التفسير، وطلبة الحديث، وما إلى ذلك من التخصصات التى تدرس فى المدرسة(١).

ولقـد كثـرت الأوقـاف المرصـدة علـى المـدارس والمسـاجد للتعلـيم فـي شـتى بـلادا لإسـلام وبلـغ مـن كثرتهـا أنـه فـي بلـد واحـد مثـل مصـر فـي عهـد محمـد علـي باشـا أنـه عنـد مسح الأرض الزراعية فـي مصـر وجـد أنهـا تبلـغ مليونـي فـدان مـن بينهـا سـتمائة ألـف فـدان أراضى موقوفة(٢).

ومن المناذج المؤكدة لكثرة الأوقاف على المدارس نأخذ مثالاً واحداً ونموذجاً يدل علـى غيره فـي عنايـة المسـلمين بإنشـاء المـدارس ووقفهـا ووقـف الأوقـاف الكثيـرة المؤيـدة إلـى استمرارها وذلك في المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

فمن أهم المدارس التـي ذكرها المؤرخ عبد الله بن محمد فرحون المالكي فـي كتابـه عـن تـاريخ المدينـة المنـورة ٦٩٣-٧٦٩هـ المـدارس التـي كانـت فـي أثنـاء إقامتـه بالمدينـة المنورة هي: المدرسة الشهابية، المدرسة الأركوجية، المدرسة الشيرازية، المدرسة الأكحية.

كمـا أضـاف السـمهودي ٨٤٤-٩١١هـ فـي تاريخـه عـن المدينـة المنـورة المـدارس التاليـة: المدرسـة الجوبانيـة، الكبرجيـة، الباسـطية، الزمنيـة، الأشـرفية، والمزهريـة. وذكـر

(١) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢٤٠.
(٢) محاضرات في الوقف، محمد أبو زهرة، ص ٢٦، والفدان الواحد يساوى (٤٢٠٠ متر مربع).

السخاوي المدرسة السنجارية والشهابية. وأخذت المدارس الوقفية تنتشر في المدينة المنورة في العهد العثماني حيث ذكر علي بن موسى في رسالته عام ١٣٠٣هـ، أن بالمدينة المنورة عشر مدارس أشهرها: المدرسة المحمودية، كما ذكر إبراهيم رفعت باشا إن عدد المدارس عام ١٣١٨هـ، وصل إلى سبع عشرة مدرسة ذكر منها ثنتي عشرة مدرسة في عرضه للمكتبات في المدينة المنورة.

وبلغ مجموع المدارس التى أحصاها أحد الباحثين المعاصرين ثمانية وثلاثين مدرسة إلى بداية التعليم النظامي فى المدينة(١).

وهذا التوسع الكبير في الموقف التعليمي كان له آثار حسنة عظيمة في الحضارة الإسلامية. ومنها ما تناوله المباحث التالية:

المبحث الأول: تحقيق مجانية التعليم:

لا شك أن كثرة الأوقاف على المدارس ولا سيما في عصور الازدهار المادي للحضارة الإسلامية أسهم في تحقيق مجانية التعليم حيث لم يكن ممكناً تفرغ الأساتذة والمعلمين والعلماء للتعليم لو لم تؤمن معيشتهم على وجه يكفيهم.

"وقد حرص واقفوا المدارس ودور التعليم المختلفة في كثير من العواصم الإسلامية على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها، ومدرسيهم، وبالأخص المسكن الملائم لهم، كي يجد الطلبة والأساتذة الغرباء، والطلبة الفقراء من أهل البلد المناخ المناسب لتلقي العلم. فكان من مكملات كثير من المدارس إنشاء مرافق ملحقة بها تخصص لسكنى الطلبة والمدرسين، كما وجد أيضاً مثل هذه المساكن يسكنها المدرسون والعلماء المرتحلون لتلقي العلم وتعليمه في المدن الإسلامية، وهذا ما عرف في الحضارة الإسلامية بالداخلية في المدارس، أو المساكن الداخلية. ويعدّ هذا الأمر بحق أحد مفاخر الحضارة الإسلامية ومنجزاتها.

(١) تاريخ المدارس الوقفية في المدينة النبوية، طارق بن عبد الله الحجار.

ولم تكن تلك المساكن مقصورة على المدارس الإسلامية بل يشاركها في ذلك كل من المساجد والخوانق والربط، حيث كانت تلك الأماكن مراكز تعمل جنباً إلى جنب مع المدارس على رعاية شؤون الطلبة وإيوائهم.

وكان نظام المساكن الداخلية في المدارس الإسلامية من مفاخر التعليم الإسلامي، حيث ساعد هذا النظام على توفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين، كي ينقطعوا لطلب العلم بعد أن تكفل مؤسسو المدارس بتوفير ما يلزم المقيمين بها من المأكل والملبس والمسكن بجانب ما يتقاضونه من معاليهم شهرية. كما أنها جعلت التعليم حقاً للجميع، لا سيما الفقراء والغرباء"(١).

وقد تفاوتت بلاد الإسلام في وجود التسهيلات لطلاب العلم فنجد الشام تفوقت في بعض العصور ونجد الأندلس تفوقت في عصر آخر، ففي القرن السادس حكى ابن جبير ما كان جارياً في دمشق من أوقاف لطلبة العلم الغرباء خاصة فقال: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفّاظ كتاب الله عزّ وجل والمنتمين للطلب .. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة {يعنى دمشق} أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها"(٢).

كما ساعدت الأوقاف فقراء الطلاب على الالتحاق بكتاتيب حفظ القرآن وتأمين احتياجاتهم من أوقاف حفظ القرآن الكريم: ومن نماذجه ما وجد بالمغرب من أوقاف لتوفير الألواح التي يكتب عليها التلاميذ القرآن الكريم، أو الأقلام والإنارة وعطاء لمعلمي القرآن الكريم(٣).

ومن جهة أخرى فإن المساجد أول مراكز التعليم الإسلامي وأهمها على الإطلاق، حيث إنَّ المساجد بالإضافة إلى كونها محل تعبُّد المسلمين واجتماعاتهم كانت أيضاً معاهد مفتوحة لكل راغب في الاستزادة من العلوم والمعارف والآداب، حيث كان الطالب

(١) إبراهيم المزني الوقف وتشييد بنية الحضارة الإسلامية، ص ٢٩.
(٢) الرحلة، ص ٢٥٨.
(٣) د. محمد الحبيب التجكاني، الإحسان الإلزامي فى الإسلام، ص ٥٥٨-٥٦٠.

حينما يرى لديه الرغبة في التعلم في هذه المساجد يقصد إحدى حِلَق التعليم المنتشرة في أرجاء المسجد، التي كانت مدارس مفتوحة لكل راغب في التعلم، فيأخذ كلٌ بقدر استيعابه مما يطرح ويناقش فيها من علوم وآداب، وقد قامت تلك الحِلَق بأثر بارز في ازدهار حركة التعليم عند المسلمين.

ومن المساجد التي اشتهرت بحِلَقِها العلمية وأدت رسالتها العلمية على أكمل وجه المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف بالمدينة، والمسجد الأقصى، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، وجامع عمرو بن العاص بمصر، ومسجدا لقيروان، والجامع الأموي بدمشق، وجامع الزيتونة، وجامع المنصور ببغداد، وجامع قرطبة، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر بالقاهرة، وغيرها من المساجد التي أدت رسالتها التعليمية خير أداء، وكانت النواة الأولى لتأسيس المدارس الجامعة في العالم الإسلامي(١).

المبحث الثاني: التشجيع على التفرغ لطلب العلم:

لا ريب أن للوقف أثره في تشجيع الطلاب على التفرغ لطلب العلم، وذلك لما يحصل من الأرفاق بالطلاب في معيشته وسكنه، ولا سيما حين يكون مسؤولاً عن إعالة نفسه، حين يدخل مرحلة البلوغ والشاب، حث أتاحت الأوقاف للكثير من شباب المسلمين ومن تعدى مرحلة الشباب أن يتفرغ لطلب العلم دون أن ينشغل بلقمة العيش وهمومها، وذلك من خلال ما وجد في الكثير من المدارس الموقوفة من مساكن خاصة بطلبة العلم يصرف لساكنيها ما يلزمهم من المأكل بحيث لا يحتاج الطالب للاحتراف لتحصيل المال اللازم لتحصيل حاجاته. ومن النماذج التي تذكر في هذا المقام ما بينه الرحالة ابن جبير بقوله: "ومرافق الغرباء بهذه البلدة - دمشق - أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفّاظ كتاب الله عزّ وجل والمنتمين للطلب ... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب فى طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها"(٢).

(١) حسين أمين، "المسجد وأثره في تطوير التعليم"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع٥، رمضان ١٤٠١هـ، ص ٧.
(٢) الرحلة، ص ٢٥٨.

المبحث الثالث: تعزيز مكانة العلماء:

حيث أن التعليم في الحضارة الإسلامية لم يعتمد على الدول والحكومات في غالب الوقت فإن العلماء وطلبة العلم كانوا أحراراً أعزة، لا تأسرهم عطايا الحكام، ولا ينتظرون جرايات السلاطين، ولاؤهم للحق وأهله، وكانت كلمة العلماء نافذة ورأيهم معتبر، إذ كانا مستقلين عن رجال السياسة، يصدعون بما يرونه حقاً، ويعارضون ما يرونه باطلاً من القرارات والسياسات، يبينون حكم الله، ويقولون الحق لا تأخذهم في الله لومة لائم.

وقد سطر التاريخ الإسلامي صوراً كثيرة من قصص العلماء في هذا المقام.

وكان مما أتاح لكثير من العلماء قوة الاستقلال عن السلطة تلك الأوقاف المرصودة لهم والتي أغنتهم عن الحاجة إلى أخذ المال من الناس والحكام والأمراء حتى لا يتهموا في دينهم وعملهم.

ويرى بعض الباحثين "أن الوقف هيأ للعالم والقاضي المسلم حرية العمل بكفاءة وإخلاص: إن الولاء في الإسلام هو لله أولاً، و هذه من أساسيات العقيدة، لذا فإن رجال العلم سواء كانوا علماء الشريعة وفقهاءها أم علماء العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم الدنيوية، كلهم يشعرون بواجب النهوض بما يجب عليهم من نصح الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ونجد أن العلماء بصورة عامة كانوا مستقلين عن السلطة غير خاضعين لها معتمدين على الأموال الموقوفة التي كان عاملاً مساعداً في تفرغهم للعلم.

كما بقى القضاة قائمين بالحق يحكمون بالعدل وذلك لاعتماد هؤلاء على ما كانوا يديرونه من الأموال الموقوفة التي أعطتهم الاستقلال المادي والفكري.

وبذلك استطاع العلماء أن يقفوا مع الحق وأن يقفوا مع أحكام الشريعة وأن يجبروا السلطان للخضوع لشرع الله كما فعل العز بن عبد السلام، والإمام النووي مع الظاهر بيبرس، والإمام البلقيني ضد المماليك، ومن قبلهم الإمام أبو حنيفة مع الخليفة المنصور عند اجتماعه بالفقهاء.

وبقيت الهيمنة والظهور لشرع ا لله حتى عصور انحسار قوة المسلمين، ولذا فإن إدارة المؤسسات التعليمية بصورتها العامة ونظام التعليم وتعيين المعلمين والأموال الموقوفة لجعل هذه المؤسسات قادرة على أداء رسالتها صار بأيدي العلماء(١).

إن الحرية العلمية والقوة في قول الحق أسبابها قوة الإيمان، والإخلاص، وأعان عليها في بعض الأحيان عدم حاجة العلماء للسلطان، ومن أساب هذا الاستغناء توفر الأوقاف لهم، ولهذا حرصت بعض الأنظمة السياسية الحاكمة في العصور المتأخرة في بعض البلاد الإسلامية على مصادرة الأوقاف والسيطرة عليها والتحكم فيها، كما حصل في مصر والشام والعراق وغيرها من بلاد العالم الإسلامي.

(١) د. محمد الصالح الوقف الخيري وتميزه عن والوقوف الأهلي، ص ٥٠.

الفصل الرابع
أثر الوقف في مجال التأليف والمكتبات

المبحث الأول: انتشار المكتبات والعناية بها:

عنى المسلمون في مسيرتهم الحضارية بوقف الكتب والمكتبات قديماً وحديثاً، وكان لهذه الأوقاف أثرها الثقافي الواسع، "فإنها كانت الوسيلة الأهم في تلقي العلوم ونشرها، وذلك لأهمية الكتب في نشر العلم من ناحية، ولصعوبة الحصول عليها قبل عصر الطباعة لكل أحد بشكل شخصي، لذا فقد تنافس الواقفون في إنشاء المكتبات العامة والخاصة، وفتحها أمام طلبة العلم، وأوقفوا عليها الأوقاف الدارّة للصرف عليها وتزويدها، وذلك لنشر الثقافة وتزويد الباحثين بكل ما يُحتاج إليه من مؤلفات.

وقد تنوع الوقف على الكتب فشمل مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمشافي والمراصد والربط والخانقاهات، كما كان هناك نوع يتمثل في وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم وعلى ورثته، واهتم وأوقفوا المكتبات بتوفير دخل مادي ثابت لصيانتها وترميمها، والصرف على العاملين بها، كما أنَّ بعضهم عيَّن ريعاً يصرف منه في إنماء الكتب عبر السنين[١].

وقد انتشر الوقف على الكتب والمكتبات في أرجاء العالم الإسلامي منذ العصور الإسلامية المبكرة، وكان له الأثر الأوفى في تعدد المكتبات وتنوع مناهلها وبالتالي تركت آثارها الواضحة في الازدهار الثقافي والعلمي الذي شهده العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة[٢].

ومما يشار إليه هنا أنه حينما تذكر المكتبات في الحضارة الإسلامية، فإنه يُقْصَد بها تلك المراكز العلمية والتعليمية الرائدة التي انتشرت في عديد من العواصم والأقاليم الإسلامية، والتي كانت بمثابة دور التعليم الجامعة التي أدّت دوراً مهماً في نشر العلم وتيسيره لطلابه عن طريق توفير الكتب بمختلف فروع المعرفة، وكذلك خدمة الباحثين

(١) يحيى محمود الساعاتي: الوقف وبنية المكتبة العربية – استبطان للموروث الثقافي – الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣٣.

(٢) انظر: يحيى محمود: المرجع السابق، وقد فصّل في هذا الموضوع كثيراً وأورد رصداً مثالياً للمكتبات الوقفية بأنواعها وباختلاف تنظيماتها ومواقعها عبر الحضارة الإسلامية.

والمطلعين على هذه المعارف، كما كانت مجمعاً وملتقى للعلماء والنابغين في مختلف العلوم مع طلابهم.

إذ لم يقتصر دور المكتبات الموقوفة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية على مجرد جمع الكتب وحفظها وتيسيرها للمطلعين، وإنما أدّت تلك المكتبات رسالة أسمى وأنجح من ذلك.

فكان لها الأثر الواضح في تنمية حركة التأليف والترجمة، وبالتالي كان لها أثرها البيّن في الثقافة العامة والمتخصصة، حتى كانت المكتبات الوقفية تزاحم بقية المكتبات الأخرى التي ترعاها الدول، وكذلك المكتبات التجارية، حتى سخر أحد العلماء ممن يشتري كتاباً مخطوطاً من حوانيت الوراقين وهو موجود في مكتبة وقفية(١).

ولم تكن حواضر العالم الإسلامي ومدته المهمة تكتفي بمكتبة أو مكتبتين بل تتعدد المكتبات وتتنوع إلى حد أنه في مدينة واحدة كالمدية النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم أحصى الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في ثنايا كتابه "قطرة من يراع قائمة بالمكتبات الوقفية في مدارس ومكتبات وربط المدينة المنورة حصر فيها ثلاثاً وخمسين مكتبة وقفية"(٢).

وفي مدينة من مدن الشام وهي مدينة حلب (لم تكد تخلو مؤسسة علمية فيها سواء أكانت مسجداً أو مدرسة أو زاوية أو تكية أو تربة، من خزانة كتب صغيرة أو كبيرة، تختلف ضخامة وصغراً باختلاف سعة المؤسسة ضخامة وصغراً.

ومن هذه المكتبات:

١- خزانة الجامع الأموي الكبير - بما فيها من كتب خزانة آل الجزار.
٢- خزانة المدرسة الخسروية.
٣- بقايا خزانة آل الكواكبي، وخزانة مدرسة الشيخ أبي يحي الكوكبي.
٤- بقايا كتب الخزانتين الموجودتين في التربة الوفائية والزاوية والوفائية.

(١) مصطفى محمد عرجاوي. "الوقف وأثره على الناحيتين الاجتماعية والثقافية في الماضي والحاضر". في: ندوة الوقف الإسلامي التي عقدت بكلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من ٦-١٩٧٧/١٢/٧م. - ٣٠: ١ - ٩١.

(٢) نقلاً عن: أ.د. عباس بن صالح طاشكندي، دور القطاع الخاص في دعم المكتبات الوقفية في المملكة العربية الوقفية، ص ١٥.

٥- خزانة المدرسة الأحمدية.
٦- خزانة المدرسة العثمانية.
٧- خزانة المدرسة الشرفية.
٨- خزانة المكتبة الصديقية.
٩- خزانة التكية المولوية.
١٠- خزانة الزاوية الهلالية.
١١- خزانة التكية الإخلاصية.
١٢- خزانة المدرسة المنصورية[١].

وهذا مثال يدل على غيره ويؤد مدى العناية بالكتب والمكتبات عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتنوع اتجاهاتهم باعتبارها وسيلة مهمة لنشر الثقافة والعلم، فمدينة مثل حلب ليست من أكبر مدن الشام ومع ذلك زخرت بهذا العدد من المكتبات الذي يعتبر كثيراً بالنسبة لوقته.

المبحث الثاني: انتشار الكتب وتيسير تداولها:

وقفية الكتب هي في مدلولها ومعناها إشاعة العلم والمعرفة، وهذا مقصد عظيم تحثّ عليه الشريعة الإسلامية، حيث أن وقف الكتب هو من الصدقة الجارية التي ورد الحث عليها في الحديث الشريف **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث ... وعلم ينتفع به)** ووقف الكتب والعلم الذي ينتفع بمن ثَمَ كثر وقف الكتب في مختلف العصور حتى أصبح في الفقه الإسلامي ما يسمى (فقه تحبيس الكتب).

وقد أحصى ابن الجوزي عدد الكتب الموقوفة في مكتبة واحدة هي المدرسة النظامية في وقته فبلغ ستة آلاف كتب الموقوفة ألف مصنف هي عبارة عن ١٩ ألف مجلّد[٢].

ولا ريب أن العناية بالكتب ووقفها في المدارس وعلى طلبة العلم، والعلماء يعد أحد أهم مظاهر الفكر الحضاري المتقدم عند المسلمين.

(١) علاء الدين محمود زعتري، دار المكتبات الوقفية الإسلامية بحَلَب، من موقع للمؤلف على شبكة الإنترنت.
(٢) عبد الوهاب أبو سليمان الوقف مفهومه ومقاصده، ص ٣.

وبلغت عناية المسلمين بوقف الكتب أن هذا العمل الجليل لم يقتصر على الأغنياء والقادرين فحسب بل حتى من لم يكن معدوداً في دائرتهم كان يوقف ولو كتاباً واحداً أو عدد محدوداً من الكتب، ولو لم تكن لديه قدرة على إنشاء مكتبة ووقفها، ويذكر في هذا نماذج متعددة في نجد على وجه الخصوص، حيث أوقف عدد من ألها كتباً متنوعة لتيسير الحصول عليها، ولتكون صدقة جارية لأهلها.

أما وقف الخلفاء والسلاطين والملوك للكتب في مختلف الأعصار والأنحاء فكان من الكثرة والتنوع بحيث شل معظم الأقطار وفنون العمل، وفي هذا العصر تميز ملوك الدولة السعودية الثالثة بداً من الملك عبد العزيز رحمه الله وإلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله بطبع الكثير من الكتب على نفقتهم وجعلها وقفاص على المنتفعين بها، وكان لهذه الأوقاف أثرها الكبير في نشر السنة النبوية ومنهج السلف في الاعتقاد وفي فهم الدين والعمل به.

وكان لهذه الأوقاف العظيمة للكتب الكثيرة في فنون شتى من العلوم الشرعية أثرها البالغ في التجديد والإحياء الديني السني في هذا العصر. حيث لم تقتصر أوقاف ألئك الحكام على نوع واحد من العلوم الشرعية بل شملت العقيدة والتفسير والفقه الحدث وفنوناً أخرى، وكان تركيز الوقف على الكتب التي تلتزم منهج السلف الصالح في فهم الدين مما كان له أثره في معرفة الكثير من المسلمين الذين وصلتهم تلك الكتب بهذا المنهج التزامهم به، بعد أن كان هذا المنهج مغيباً عنهم بسبب كثرة البدع، كما كان لهذه الكتب أثرها الواسع في فتح آفاق من الدراسات والمؤلفات حول منهج السلف.

المبحث الثالث: انتشار العلم والثقافة بين العامة:

نتيجة لكثرة المكتبات الموقوفة في مختلف أمصار ومدن العالم الإسلامي انتشر العلم والثقافة لتشمل طبقات الناس رجالاً ونساء حتى المماليك من العبيد والجواري، بل والأيتام، حتى إن العمال البسطاء كالبوابين ومناولي الكتب سلت لهم مهنتهم في المكتبات أن يرتقوا بأنفسهم في سلم العلم والثقافة.

حيث "أرك الواقفون أهمية المكتبات لا سميا لطلبة العلم في وقت لم تعرف فيه الطباعة الحديثة، وكانت الوسيلة الوحيدة للحصول على كتاب هي إعادة نسخة بخط اليد، مما جعل الكتاب نادر الوجود، وإذا وجد كان باهظ الثمن، ومن هنا تبدو أهمية

الأوقاف في تيسير الحصول على الكتاب سواء للاطلاع أو النسخ أو المقابلة"[1]، ومن ثم فإن كثرة المكتبات الوقفية وتوزعها على الحواضر الإسلامية أتاح لكل راغب في القراءة والاطلاع وتوسيع مداركه العلمية أن يحصل على ما يريده من ثقافة من خلال تيسير الكتب له ليقرأ وتثقف دون كلفة ولا مشقة، سيما مع صعوبة الحصول على الكتب الكبيرة والموسوعات ذات المجلدات لعامة الناس سبب تكلفة النسخ، غير أن وقف الكتب والمكتبات جعل العلم مشاعاً والفكر متاحاً للجميع دون تمييز. وهذا بدوره أثمر وفرة المتعلمين والمشتغلين بفنون العلم المختلفة على مر العصور، وفي شتى بلدان العالم الإسلامي، فنجد على سبيل المثال أن تراجم الفقهاء والأدباء وسائر المنتمين للعلوم تدل المتأمل فيها بوضوح على كثرة المشتغلين بالعلوم، ومن أهم العوامل التي أنتجت هذه الأعداد الضخمة هو توفر المكتبات وتيسر الاطلاع مع ما سبق ذكره من تعداد المدارس والجامعات العلمية.

ومما يؤكد هذه الحقائق ما ذكره ابن الجوزي عن استفادته من الكتب الموقوفة في المكتبات بقوله: "ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالاً وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب".

ولقد نظرت في ثبتا لكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالاً وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب.

فتيسر الكتب للناس عبر الوقف أتاح لابن الجوزي وغيره أن ينهلوا من معين العلم بفنونه المختلفة على نحو لم يكن ممكناً لهم دون تلك المكتبات إذ أن الآلاف من المجلدات التي اطلع عليها ابن الجوزي لم تكن متاحة لمثله بالشراء نظراً لندرة الكتب وارتفاع ثمن النسخ بالنسبة لعامة الناس.

(١) أمين محمد محمد الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢٥٩، القاهرة، دار النهضة ١٩٨٠.

أهم التوصيات:

١- العناية بالوقف على العلوم والمعارف بشكل عام وتحري المجالات التي يقل الوقف عليه.

٢- الإفادة من طريقة الواقفين المتقدمين في التغلب على التضخم بربط مصروفات الوقف بالسلع الضرورية أو الذهب في هذا العصر أو أي سلعة تعتبر مقياساً جيداً للتغلب على تقلبات الأسعار.

٣- أن يكون هناك مرونة أمام النظر في صرف ريع الوقف لما يخدم الغرض الذي من أجله أنشئ الوقف.

٤- أن يبتعد الواقفون عن تقرير التمذهب الفقهي في الإفادة من الوقف حتى يعم النفع.

٥- أن يربط الوقف بالمؤسسات التي تستمر ولا يتوقف عملها بموت الواقف أو إهمال الذرية أو غير ذلك من الأسباب المؤدية على انقطاع الوقف.

المراجع والمصادر

* **الأمين محمد محمد:**
الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م - دراسة تاريخية وثقافية - القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.

* **أبو سليمان عبد الوهاب:**
الوقف مفهومه ومقاصده، ضمن أبحاث دورة المكتبات الوقفية بالمملكة العربية السعودية، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ.

* **ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م):**
رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

* **تجكاني، د. محمدا لحبيب التجكاني:**
الإحسان الإلزامي في الإسلام وتطبيقاته في المغرب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية ١٤١٠هـ.

* **حافظ، عمر زهير:**
نماذج وقفية من القرن التاسع الهجري، ضمن أبحاث ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته.

* **حجار، طارق بن عبد الله الحجار:**
تاريخ المدارس الوقفية في المدينة النبوية.

* **حسين أمين:**
المسجد وأثره في تطوير التعليم - مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق - ع٥ - رمضان ١٤٠١هـ.

* **حمزة، عبد اللطيف حمزة:**
الحركة الفكرية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، ط٨، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م.

* **درويش، منى درويش:**
التكايا العثمانية من العبّاد إلى العاطلين، موقع إلام أو لاين، ٢٠٠١/٦/١٠م.

* **الرصافي، معروف:**
ديوان معروف الرصافي، المجموعة الكاملة، منشورات دار الحياة، بيروت ط السادسة، ١٩٥٧م.

* **ساعاتي، يحيى محمود:**
الوقف وبنية المكتبة العربية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٦هـ.

* **صالح، د. محمد الصالح:**
الوقف الخيري وتميزه عن الوقف الأهلي، ص ٥٠.

* **عرجاوي، مصطفى محمد عرجاوي:**
الوقف وأثره على الناحيتين الاجتماعية والثقافية في الماضي والحاضر. في: ندوة الوقف الإسلامي التي عقدت بكلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من ٦ - ١٩٧٧/١٢/٧م.

* **قحطاني، راشد:**
أوقاف السلطان الأشرف شعبان، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

* **كبيسى، محمد عبيد:**
أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

* **مزيني عبد الرحمن بن سليمان:**
وثائق وقف الكتب بالمدينة المنورة في القرن العاشر الهجري.
الوقف وبنية الحضارة الإسلامية بحثان مقدمان لندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية.

* **المقريزي، تقي الدين أحمد بن على (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م).**
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ "الخطط المقريزية"، بيروت، دار صادر، (د.ت).
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢ نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٠م.

* **النعيمي:**

عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت: ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، نشر وتحقيق: جعفر الحسينى، دمشق: مطبعة الترقين، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

* **يوسف:**

محمد صبري يوسف، دور المتصوفة في العصر العثماني، رسالة ماجستير، نقلاً عن محمد الصدفي، أرزاق العباد بموالد الأولياء، مقال منشور بموقع الإسلام أو لاين بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٦.